

التخصص: وطن عربي معاصر
المستوى: ماستر 1
السداسي: الأول
المقياس: الاتجاهات الفكرية في الوطن العربي 1798 - 1914
الرصيد: 4
المعامل: 2
الأستاذة: د. منى صالح

1985



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

أوضاع المسلمين الفكرية قبل القرن التاسع عشر

شكل الإسلام بعقيدته وتشريعاته وحضارته مرحلة تاريخية مفصلية ومهمة، فقد صقل الفكر الإنساني، وجعله قائما على التوحيد، وأعطى بذلك الحرية للعقل للتفكير في ملكوت الله في السماوات الأرض، ففتح المجال واسعا للعلوم وتطورها، وأسست الدولة الإسلامية على قواعد تجمع بين الدين والدنيا مستمدة تعاليمها من الشريعة الإسلامية، وانتشر الإسلام خلال قرونه الأولى في شبه الجزيرة العربية والهند والصين وأندونيسيا وشرق أوروبا وإفريقيا، وفي قمة تماسكه كثافة تفتت الإسلام سياسيا في القرن 4هـ/10م.

وعلى الرغم من الضعف السياسي وغزو التتار والمغول في القرن 13م، وسقوط الدولة العباسية، وتشتت المسلمين إلى دويلات متناحرة، إلا أنهم حافظوا على ثقافتهم، والتي ستكون أساسا نهضتهم في القرن التاسع عشر. لقد ورث المسلمون ثروة تزخر بالقوة والعزة حافظوا عليها لعدة قرون، ويأتي على رأس هذه الثروة القرآن الكريم، والذي يحمل بين دفتيه مجموع القيم والشرائع والحكم والمواعظ التي توقظ النفوس والهمم، وفيه معاني العزة والقوة والتطلع إلى الحرية. كما ورث المسلمون الحديث النبوي، والذي هو ينبوع الثاني لعزهم. وحافظوا على موروثهم الثقافي والأدبي والتاريخي، الذي يحمل أمجاد الأمة وفتوحاته. فقد نشر المسلمون حضارتهم في كل العالم القديم، وهضموا الحضارات السابقة، وكونوا حضارة عربية إسلامية في وقت كان الغرب يعيش في ظلام القرون الوسطى. ولم يستيقظ الغرب إلا على وقع أقدام هذه الحضارة. (محمد، زكي، و أحمد، د.ت، الصفحات 5-6).

حاول العثمانيون توحيد مساحة واسعة من بلاد المسلمين تحت رايتهم، في بداية القرن 10هـ/16م، إلا ان الركود الفكري كان قد ضرب أطنابه في هذه الفترة، فقد أغلق باب الاجتهاد وعطلت العلوم العقلية، وكان ذلك سببا أساسيا في الركود والانحطاط. ففي عصر الإسلام الذهبي ظهرت تفسيرات عديدة للشريعة، وبرزت المذاهب الفقهية والعقدية، وتأقلمت الحضارة الإسلامية مع بقية الحضارات، وتطورت مختلف العلوم الدينية والتجريبية، وظهر علماء وضعوا أسس وقواعد العلوم، استفادت منها أوروبا في نهضتها. وبتراجع المسلمين فكريا أصبحت المذاهب الفقهية من الأمور الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان، واعتبر الخروج عنها بدعة، وخضع النظام السياسي للأهواء، وبذلك تقلص الاجتهاد، وتجمد التفكير وحل محلها

التقليد والنقل وغلب الحفظ على التحليل، (علي، 1999، صفحة 10) وطغى التصوف على العقيدة الصافية التي كانت سببا في عز المسلمين الأوائل. "فقد ضاعت كل بقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التي كانت سائدة في ماضي الحضارة الإسلامية، وبلغ سوء الحال في الأدب في ذلك العصر انه لم ينبغ ولا شاعر واحد يستحق ان يشار إليه، واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بتأليف الشروح والحواشي والتعليق والتفاسير، بدلا من الاهتمام بالابتكارات الأصلية في العلوم، حيث تحولت الأصالة العلمية إلى ضحالة، حتى في مجال اللغة نافستها اللغة التركية، ولكنها لم تتمكن من طردها، حيث هبط مستوى التأليف الخلاق المبتكر إلى درك الجدل العقيم، والتعليم السقيم، والحواشي التي لا ترتفع إلى مستوى الأصلاء في التفكير، ولا تعدو أن تكون مجموعة من الاعتراضات المفردة التي لاتدل على استجماع فكر، ولاتأصيل رأي ولا استبطان" (بركات، 2000، صفحة 132) وساد الركود الفكري كل العالم الإسلامي.

1. بدايات الإصلاح:

لم يكن ضعف المسلمين وتشتتهم إلى دويلات راجعا إلى غزو المغول والأتراك والتناثر وبقية الأقوام فحسب، وإنما يعود أيضا إلى أسباب أخرى منها نظرة حكام وعلماء المسلمين إلى قضية السلطة والحاكم، فقد ورث المسلمون نظام الخلافة. وكانت في عهد الخلفاء الراشدين واحدة عالمية وقائمة على المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المسلمين، وكان الحاكم خليفة للرسول (ﷺ)، في وظيفة سياسية يمارسها وفقا للشريعة. لكن هذا لم يعد يصح على الحكام فيما بعد الخلافة الراشدة، فقد أصبحت وراثية أو محصورة في بقعة واحدة أو في حوزة عرق معين، وأصبح الاستيلاء على الحكم بطريقة مخالفة لما قال به الفقهاء. (حوراني، د.ت، صفحة 24)

ولعل بعض الفقهاء زاد من تردى الوضع السياسي بتغليبهم طاعة الحاكم على صلاحه، ففي نظر أبي حامد الغزالي مثلا أن الواجب طاعة الإمام، أما من هو وكيفية اختياره فتأتي بالدرجة الثانية. وانتشر قول "إمام ظلوم خير من فتنة تدوم"، وبذلك تحول تفكير المسلمين السياسي من البحث عن مصدر السلطة، إلى كيفية ممارستها، وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأمة الإسلامية آنذاك وإلى تأثير الفلسفة الإغريقية التي تغلب الطبيعة الإنسانية والمجتمع على الدين، فالحاكم في نظر افلاطون لاتقيده إلا الحقيقة التي يطلع عليها بعقله، أما الشريعة عنده

فهي ليست ضرورية إلا للمحكومين. وقد عالج المسلمون مسألة السلطة والحاكم ومنهم من تأثر بالفلسفة الإغريقية، فالفارابي (870-950) مثلا قال ان النبوة وظيفة من وظائف المخيلة ووضع تصوره للمدينة الفاضلة. (حوراني، د.ت، صفحة 29)

ومن علماء المسلمين الذين حاولوا الإصلاح منذ عهد مبكر وتركوا أثرهم لعدة قرون نجد أحمد بن تيمية (1263-1328)، فقد رأى ما أصاب الأمة الإسلامية من فتور وما اعتراها من سيوف التتار وما أصابها من الفرق الدينية المنحرفة العقيدة مثل الباطنية والقرامطة والمزديكية وغيرها. بدأ ابن تيمية بإيقاظ الرقود فاعتمد على القرآن الكريم مصدرا للإصلاح لتخليص الأمة من العقائد الضالة، ووجه هجومه إلى فقهاء عصره الذين جمدوا على التقليد وإلى الصوفية وأهل الزهد الذين أفسدوا السلطان، وتلاعبوا بالنظم والشرائع واستغلوا الدين لمصلحة السلطان. نزه ابن تيمية الله عما يريده الضالون وأكد على عقيدة التوحيد، وأكد على عزة النفوس بعقيدة التوحيد السامية، وهي التي تغرس المثل العليا في الأمم، فإذا كان الفرد عزيزا عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع والدولة. (محمد، زكي، و أحمد، د.ت، صفحة 10).

ومن القضايا المهمة التي عالجها ابن تيمية قضية نظام الحكم، وهي قضية شائكة وعلى الرغم من الاجتهادات الكثير من العلماء إلا أنها مازالت مطروحة إلى يومنا هذا. فحكم الخلفاء الراشدون المثالي لم يعد قائما آنذاك، وكانت الأمة الإسلامية تحكمها عدة ممالك، والأمر الثاني الذي واجهه ابن تيمية هو نظام الشريعة الإسلامية حيث أن باب الاجتهاد كان قد أغلق عمليا، وكان نظام الحكم يطبق قواعد التصرف بمقتضى الحال. وقد حل ابن تيمية هذه القضية المزدوجة بنظرة جديدة في شرعية الحكم ووحدة الأمة وتنظيم الشريعة. (حوراني، د.ت، صفحة 23)

كتب ابن تيمية "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، وجعل الإمارة قوام الأمة، وواجبا من واجبات الدين ولا يقوم المجتمع إلا بها لأن المجتمع يقتضي ذلك في رأيه، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف، ويرى ابن تيمية أن الولاية الكبرى في الإسلام تكون بالبيعة العامة للأمة، وإن السلطة هذه الولاية بالتعاون بين الأمة وأهل الشوكة ممن لهم كفاءة في مباشرة السلطة في المجتمع بما يملكونه من علم ومقدرة وتأثير وقدوة. ويقصد بأولي الأمر العلماء والأمراء، وهدف الولاية العامة هو إقامة الدين وتنفيذ أحكام الشرع وإشاعة العدل

وتحقيق مصالح الناس، وتكميلها ودرء المفسد وتقليلها بالالتزام بمقاصد الشريعة الكلية وعدم المخالفة للنصوص القطعية الثبوت والدلالة من الكتاب والسنة. (أحمد، 1413، صفحة 272) وبهذا أرجع ابن تيمية روح التشريع الإسلامية في وقت ضعفت فيه السلطة السياسية وطغت الفلسفة الإغريقية، وبدأ تفكير المسلمين في التجمد.

وضع ابن تيمية أسس الحكم في الإسلام معتمدا على الكتاب والسنة، ويرى أنه يقوم على العدل، ويمكن أن يكون أكثر من حاكم، دون أن يؤدي ذلك إلى هلاك الأمة فوحدة الأمة هي وحدة العقول والقلوب وليس وحدة الأشكال السياسية، والمسلمون إنما يشتركون في العقيدة واللغة والشريعة والهدف. ويرى أنه على العلماء أن يستنبطوا التشريع الذي يناسب زمانهم اعتمادا على الكتاب والسنة. (حوراني، د.ت، صفحة 33). ولكن أفكار ابن تيمية وجدت معارضة شديدة فحوكم وعذب وسجن ودفنت معظم أفكاره، وهو فهي الحقيقة بداية جمود حضارة مبدعة وعريقة وهي الحضارة الإسلامية.

وابتداء من هذا التاريخ بدأت موازين الأمة الإسلامية تنقلب، وبمرور الأيام انعدم وجود الفرد الذي يحافظ على السلطان، والذي يستطيع تسوية الأمور بنظم جديدة، ويرى مالك بن نبي أن الأمر لا يتعلق بالنظام السياسي، بل يتعلق بالإنسان بحد ذاته، والذي فقد همته المتحضرة، وعجز عن التمثل والإبداع، فالتركيبية الأساسية تحللت فتحللت معها الحياة الاجتماعية، وحلت مكانها الحياة البدائية. فسقوط دولة الموحدين لفظت الحضارة الإسلامية آخر أنفاسها. وحل محل الإنسان المتحضر الإنسان الذي يحمل الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والاجتماعي. (بن نبي، 1981، الصفحات 31-32).

إن ظهرت آراء ابن تيمية الإصلاح في المشرق فقد ظهر بعده في المغرب الإسلامي مفكر آخر وهو عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406م)، لقد عاش ابن خلدون في زمن من أشد فترات تاريخ العالم الإسلامي اضطرابا وغليانا، وكانت أقطار العالم العربي تسير نحو الانحطاط، فقد احتك ابن خلدون ببلاطات الحكام وعاش في الحضر ومع البدو، وسعى إلى مواجهة أحداث عصره ودراسة أسبابها القريبة والبعيدة، ووضع أفكاره ونظرياته أولا في كتاب العبر ثم كتاب المقدمة، اعتمد فيه المنهج الإسلامي في معرفة المجتمعات الأمم، حيث استفاد من الإشارات القرآنية، واستخدم علم مصطلح الحديث وعلم أصول الفقه وما يحتويه

من قياس ومقارنة وقانون العلية والاطراد، واستنتج قوانين التغير الاجتماعي وسنن الكون.
(عواطي، 2001، الصفحات 46-52)

عالم ابن خلدون قضية كيفية الاستيلاء على الحكم والاحتفاظ به، والتغيرات التي تطرأ عليه، وثمره الحكم الصالح وهي العمران، أو الحياة في المدن، وأكد على ضرورة الشريعة الإلهية على الدول واستقرارها. ودرس أعمارها وأسباب قوتها وازدهار وأسباب انحطاطها وزوالها. وكل ذلك في كتابه المقدمة. لم يستفد المسلمون آنذاك من المقدمة في حين أن الأوروبيين استفاد كثيرا من نظريات ابن خلدون وترجموا مقدمته إلى اللغات الأوربية، ومازالت محل اهتمامهم إلى اليوم.

2. محاولات الإصلاح في الفترة الحديثة:

إن الأفكار وإن وجدت معارضة أو قتل لها في عصر صاحبها، فإنها لا تموت وبخاصة إذا ترك صاحبها إرثا مكتوبا، فابن تيمية وجد معارضة شديدة لأفكاره وضاعت معظم مؤلفاته، وبعده نشأت مدرسته وحمل أفكاره من بعده تلميذه ابن قيم الجوزية، وتأثر بأفكاره محمد بن عبد الوهاب (1696-1791)، حيث قام بحركة دينية معارضة للعثمانيين هي حركة محمد بن عبد الوهاب أول مبادئه هو محاربة الوثنية والرجوع إلى أصول الإسلام الصحيحة، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد لكل مستوف لشروطه، ودعا الناس إلى النهوض من الذل إلى العزة والقوة إلى الايمان الصافي والارتباط بالله وحده. تحالف ابن عبد الوهاب مع أمير الدرعية من آل سعود عام 1747 حديث وجد هذا الأمير السعودي ضفء العقيدة في دعوة ابن عبد الوهاب. وفي هذا التحالف انتشرت الدعوة في قلب الجزيرة العربية. (محمد، زكي، و أحمد، د.ت، الصفحات 18-20).

إن وَّحَدت الدولة العثمانية بعض المساحات من العالم الإسلامي، وحمى المسلمين في المغارب من الهجمات الصليبية، إلا أن العالم العربي استمر في جموده الفكري في العهد العثماني، وعرفت الدولة العثمانية أيضا بوادر ضعفها بعد موت أقوى سلاطينها وهو سليمان القانوني، وكانت هناك أفكار إصلاحية تعتمد على الأخذ من الغرب الأوروبي الذي كان يعيش نهضته في جميع الميادين.

لكن هذه المحاولة الأولية للتجديد التي أخفقت في إستانبول في بداية القرن التاسع عشر، تزامنت معها حركة إصلاحية أخرى بمصر، فقد قام محمد علي بحركة إصلاحية مستمدة من التجربة العثمانية في تجديد القوة العسكرية. (Tlili, 1981, p. 1/46)، بدأ محمد علي بإزالة العقبات الرئيسية التي تعيق إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقام بتنظيم مجزرة المماليك في سنة 1811، فأزال طبقة المماليك التي تمثل النظام التقليدي.

لقد كانت تجربة محمد علي الإصلاحية أول تجربة لاستيعاب تقدم أوروبا والاستفادة من علومها، بحيث يتم تدعيم القوة العسكرية وتسريع الإنتاج، (البتاني، 1978، صفحة 21) وكانت السمة الغالبة للإصلاح في هذه الفترة لدى المسلمين هو التقليد "تقليد أوروبا" وكانت نزعة بعض المصلحين هو استيراد الأشياء "فالمغلوب مولع بتقليد الغالب". (ابن نبي، 1978، صفحة 147)

تزامنت إصلاحات محمد علي بمصر فيما بين (1811-1846) مع توتر العلاقات الدولية في البحر المتوسط خاصة بين فرنسا وبريطانيا وتنافسهم للتوسع على حساب الدولة العثمانية والتي كانت منشغلة بحربها مع روسيا، ومع الأقليات القومية والدينية التي تريد الانفصال، بالإضافة إلى الحركة الوهابية في الحجاز، والتي حاول محمد علي القضاء عليها والتوسع في الشام وشمال إفريقيا، لذلك كان تركيزه على تنظيم الجيش وحدائته ليقوم بدوره خارج الحدود المصرية، وحتى يتمكن من إصلاح بقية المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فقد أنشأ مؤسسات تعليمية على النمط الأوربي وأرسل بعثات علمية إلى أوروبا وشجع الترجمة والنشر وأنشأ الصحف والمدارس العليا المتخصصة. (Tlili, 1981, p. 47)

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

1985



جامعة محمد بوضياف - المسيلة

Université Mohamed Boudiaf - M'sila

